

حوار في النص القرآني بين التأويل الشرعي والهرمنيوطيقا الفلسفية

A Dialogue in the Qur'anic Text between Legal Interpretation and Philosophical Hermeneutics

د. موفق طيب شريف*

جامعة أدرار (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2019/05/10 تاريخ القبول: 2019/12/06 تاريخ النشر: 2019/12/22

ملخص:

الهرمنيوطيقا اتجاه فلسفي وجودي نشأ في أحضان اللاهوت، وقد عرف هذا المصطلح تطورا في الدلالات رافقته منذ تشكله إلى الآن، ليتحول من علم الإدراك اللغوي المرتبط بالنص إلى فن الفهم على يد شلاير ماهر، ثم المنهج المعرفي للعلوم الإنسانية على يد دلثاي، ليرتبط في آخر مراحل دلالاته بفلسفة الوجود على يد مارتن هيدغر. ومقاربة مع ذلك فإنه ومنذ أن نزل الوحي على الرسول - صلى الله عليه وسلم- وهو يأمر الإنسان بإعمال طاقاته العقلية في استجلاء مقررات الوحي الإلهي المرتبطة بحركة الفرد والمجتمع، كما أن الوحي هو الذي أمر العقل بتنزيل هذه النصوص على الواقع والتبصر بمآلاتها. انطلاقا من كل ذلك وباعتبار القرآن نصا دينياً، ونظرا للترادف اللفظي بين الهرمنيوطيقا والتأويل فقد ساعد ذلك بعض دعاة التجديد في مجال التفسير على تبني المنهج الهرمنيوطيقي.

كلمات مفتاحية: النص؛ الوحي؛ منهج التأويل؛ التجديد؛ الهرمنيوطيقا.

Abstract:

Hermeneutics is a philosophical and existential sub field that arose in the arms of theology, and this term has known a development in semantics that accompanied it since its formation until now, to turn from the science of linguistic cognition linked to the text to the art of understanding at the hands of Schleier Makher, then the epistemological approach to the humanities by Dalthey, to be linked in the last stages Its implications for the philosophy of existence by Martin Heidegger. And an approach with that, since the revelation was sent down to the Messenger - may God's prayers and

peace be upon him - and he commands man to exercise his mental energies in clarifying the decisions of divine revelation related to the movement of the individual and society, and it is the revelation that commanded the mind to download these texts to reality and insight into their outcomes. Proceeding from all this and considering the Qur'an as a religious text, and given the verbal synonyms between hermeneutics and interpretation, this has helped some advocates of renewal in the field of interpretation to adopt the hermeneutic approach.

Keywords: text; revelation; method of interpretation; renewal; hermeneutics.

1. مقدمة:

المعاني والتأويلات ينبغي لها التعلق بالوجود التاريخي والعيني المحدّد، والارتباط بالواقع المنسوب لها، والمحمول عليها، والمسند إليها. ذلك أن وجودنا يشتمل على موقفنا وموقعنا وأدوات في متناول أيدينا، ثم أن اللغة التي هي أساس التأويل ليست منفصلة عن الوجود المرتبط بظروف الزمان والمكان، وإذا كان المرء لا يمكنه أن يعرف العالم إلا من خلال الفهم المسبق، فإن العالم وجود عيني يحملنا على مراجعة أفهامنا المسبقة، أو ما يعرف بالخبرة التأويلية.

تلك هي تجليات الهرمنيوطيقا أو علم فهم الفهم، انطلاقاً من فلسفة العبور اللفظي بتفكير الآلهة، وصولاً إلى ارتباطها بفهم الوجود.

وإذا كانت الهرمنيوطيقا قد نجحت إلى حد بعيد في بناء منهج تفسيري مرتبط بالنص المقدس (العهد القديم) ثم تطورها وتعميمها على العلوم الإنسانية والاجتماعية قصد فهم فلسفة الوجود. فإن تطبيقها على النص القرآني يحتاج إلى كثير من التأمل والدراسة وإثارة العديد من مواطن المقارنات.

- فهل فعلاً نحتاج إلى عقل جديد نفهم من خلاله النص القرآني؟
- وهل الفهم الكلاسيكي القديم للقرآن الكريم بمثابة أسنان لبنية وجب أن تسقط لانتفاء وظيفتها؟ ليحل محله فهم آخر وفق ما تقتضيه الدلالات الهرمنيوطيقية؟.

هذه الإشكالات وغيرها يتم تناولها وبحثها ضمن هذه المداخلة من خلال الخطّة

التالية:

● مقدمة

● المطلب الأول: الهرمنيوطيقا والتأويل القرآني مقاربات في الفهم

-الفرع الأول: الجذور اللغوية للهرمنيوطيقا:

-الفرع الثاني: التأويل القرآني والهرمنيوطيقا اليونانية:

-الفرع الثالث: الهرمنيوطيقا من التأويل اللاهوتي إلى منهج البحث

في الفهم:

● المطلب الثاني: تحديات الهرمنيوطيقا وتفسير النص القرآني

-الفرع الأول: التحدي الأول: الاتجاه السيكلولوجي ومحله في

التفسير القرآني

-الفرع الثاني: التحدي الثاني: الهرمنيوطيقا ونسبية الفهم:

-الفرع الثالث: ارتباط الفهم بالنص لا بصاحبه

● خاتمة

● المطلب الأول: الهرمنيوطيقا والتأويل القرآني مقاربات في الفهم

○ الفرع الأول: الجذور اللغوية للهرمنيوطيقا:

الهرمنيوطيقا من الفعل اليوناني Hermeneuein ويعني "يفسر" والاسم

Hermeneia ويعني "تفسير" وكليهما مشتق من "Herms" رسول اليونان الذي كان يتقن لغة

الآلهة ويفهمها، ثم يترجم مقاصدها وينقلها إلى البشر. مما يتطلب منه عبور البون الفاصل

بين تفكير الآلهة وتفكير البشر(عادل، 2007: ص. 25). وبذلك فإن الأصل اللغوي

للهرمنيوطيقا مرتبط بعملية الإفهام المرتبط بالنص المقدس. وعليه فالمقصود بالهرمنيوطيقا نظرية التأويل لا التأويل ذاته.

وبمقابلة الهرمنيوطيقا بمناهج تفسير النص القرآني عند المسلمين نجد أنها أكثر ما ارتبطت بفن التأويل إلى درجة أن البعض اصطلح على تسمية الهرمنيوطيقا اليونانية بعلم التأويل (أبو زيد، 1981: ص. 148).

○ الفرع الثاني: التأويل القرآني والهرمنيوطيقا اليونانية:

يذهب الكثير من الدارسين في مجال المقارنات الفلسفية والفكرية، إلى مقارنة الهرمنيوطيقا الكلاسيكية المرتبطة بالنص المقدس بالتأويل القرآني الضروري لفهم القرآن وإدراك معانيه واستخلاص أحكامه.

ما كان الناس لهمتدوا بهدي القرآن الكريم و يلتزموا حدوده لو لم يفهموا معانيه و يدركوا أسرارهم، ولذلك كان القيام بتفسيره من المهام الرئيسية التي كلف الله بها نبيه محمد - ﷺ - أثناء حياته بمقتضى قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: 44]، كما كلف بها علماء الأمة من بعده بمقتضى قوله - عز وجل -: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) [التوبة: 122].

ومن مراتب فهم القرآن الكريم مرتبة البحث عن حقيقة مراد الله بأقصى ما تستطيعه الطاقة البشرية من احتياط ودقة في مراعاة ما يلزم مراعاته من أسس منهجية دقيقة لا تتوفر إلا لمن حاز ثقافة عالية و مواهب شخصية متميزة وهذا النوع هو ما يمكن أن نطلق عليه التأويل.

والتأويل لغة هو من آل الشيء يؤول إلى كذا، أي رجع إليه، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "التأويل: التفسير، والمرجع والمصير".

ويطلق التأويل في الاصطلاح ويقصد به " صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوح يحتمله ، لدليل دل على ذلك".

○ الفرع الثالث: الهرمنيوطيقا من التأويل اللاهوتي إلى منهج

البحث في الفهم:

إذا كان توظيف الهرمنيوطيقا قد ابتداءً أولاً بالتأويل اللاهوتي مع الرسول هرمس عند اليونان، إلا أنه مرّ بتطور في استعمالاته وفق المفاهيم الآتية:

- هرمس والعبور إلى الآلهة: يرى الدارسون أن أول تطبيقات الهرمنيوطيقا أخذت من هرمس الذي كان يعبر المسافة بين تفكير الآلهة وتفكير البشر.

والظاهر بالرجوع لبعض الأقوال التي تذهب إلى الربط بين هرمس والنبى إدريس - عليه السلام- المذكور في القرآن، يبدو جلياً مدى الربط بين النص والتفسير من جهة، والواقع البشري محل تطبيق النص، وواقعه الثابت في مصدره السماوي. حيث أن النبى إدريس - عليه السلام- المذكور في قوله تعالى: (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) [مريم: 56] هو أول من خطّ بالقلم (ابن كثير، 1988: ص. 140)، وفي ذلك دلالة على معرفته التعامل مع النص، وقد مكّنه الله من الصعود إلى السماء والالتقاء بالملائكة، ثم النزول إلى الأرض والاجتهاد في تطبيق النص داخل الواقع البشري، وهذا هو المعنى الذي يتحقّق معه العبور الذي تقصده الهرمنيوطيقا في أولى تجلياتها.

فهرمس كان بمثابة الجسر أو الواسطة بين رسالات الآلهة والبشر، وذلك بتحويل ماهيتها ومضامينها التي كانت فوق مستوى فهم البشر، من أجل تفهيمها وجعلها ممكنة الإدراك من قبلهم.

○ شلاير ماخر (1786 – 1834) والهرمنيوطيقا الثنائية: يرى شلاير ماخر أن

عملية الفهم قائمة على اتجاهين: الاتجاه اللغوي حيث يخضع النص المقدس في تفسير ألفاظه لنفس قواعد وأصول الفهم اللغوية المطبقة على النصوص البشرية.

والاتجاه النفسي وهو ما عبر عنه شلاير ماخر بالحالة الرومانسية لصاحب النص المرتبطة بواقع والظروف التي رافقت السياق اللغوي للنص، وفق ما اصطلاح على تسميته

بالبعد السيكلولوجي للفهم، فمعرفة ضرورية لفهم النص فهما صحيحاً (أبو زيد، 1992: ص. 13).

○ دلتاي (1833 – 1911) ومنهج الفهم في العلوم الإنسانية: أخرج دلتاي الهرمنيوطيقا من مجال الفهم المحدود بإطار النص إلى مجال الفهم الذي يتسع لكل علوم الفكر، معتبرا أن فهم العلوم الإنسانية لا يخضع للمناهج التجريبية، ذلك أن العلوم الطبيعية ذات سمة وصفية بعكس العلوم الإنسانية التي تركز على المعنى والفهم (شرفي، 2007: ص. 33).

○ مارتن هيدغر (1889 – 1976) وفلسفة الفهم الوجودية: وذلك من خلال محاولاته تأسيس فهم حقيقي للوجود، فاقتربت معه الهرمنيوطيقا بالفلسفة الوجودية (ابراهيم، 2006: ص. 71).

○ غادامير والانتقال من المنهج إلى البحث في الفهم: أحدثت هرمنيوطيقا غادامير قطيعة مع الهرمنيوطيقا الرومانسية ذلك أن النص –حسبه- "لا يفهم بما هو تعبير عن حياة، بل بما يقوله حقاً" (غادامير، 1988: ص. 26)، ذلك أن النص عند غادامير له استقلاليته الخاصة التي انفصلت عن نفسية المبدع ليحقق وجوده الخاص ، وهو ما يعبر عنه بالوجود الموضوعي للنص الذي يكسبه حالة من الثبات والاستقلال عن كل العناصر النفسانية التي تولّد عنها، ويصبح حاملاً لحقيقته ولتجربته المعرفية الخاصة التي يفصح عنها من خلال شكله الموضوعي الثابت (غادامير، 1988: ص. 26).

ومن خلال هذه المقاربات حول تطور توظيف الهرمنيوطيقا في عملية الفهم، نجد أن مجال المقارنة مع فهم النص القرآني إنما يجد حواراً القرآني الهرمنيوطيقي من خلال فلسفة شلاير ماخر المرتبطة بفهم النص المقدس التي تستمد أصولها من منهج الفهم عند هرمس. قبل أن يتطور مصطلح الهرمنيوطيقا بعد ذلك خارج النص الديني المقدس.

● **المطلب الثاني: تحديات الهرمنيوطيقا وتفسير النص القرآني:**

من خلال المفاهيم السابقة للهرمنيوطيقا اللاهوتية، والتأويل القرآني أثرت بعض التحديات التي تطرحها الهرمنيوطيقا في تطبيقها على النص القرآني نوجزها فيما يلي:

○ **الفرع الأول: التحدي الأول: الاتجاه السيكلوجي ومحلّه في**

التفسير القرآني:

إلى جانب الاتجاه اللغوي ذهب شلاير ماخر إلى بناء هرمنيوطيقته على الاتجاه السيكلوجي للنص، ذلك أن النص مهما امتلك من تناسق ومتانة في الدلالة إلا أنه محكوم بعوامل الزمن وظروف الحال التي تفرض تطوراً دلاليا للنص.

والنص الديني بصفة عامة والقرآني بصفة خاصة يجمع بين ثبات الإطار وحركة المحتوى. فأما ثبات الإطار فلما يُمثله النص من امتداد للخطاب الإلهي، وأما حركة المحتوى فلضرورة انسجام المحتوى المعرفي مع الطبيعة الإنسانية، فالإنسان بوصفه موجوداً تاريخياً يتحرك ضمن إطار الظرف الزمني الذي يتواجد فيه، والبيئة المكانية التي يتفاعل معها.

وربط النص بواقعه يجد أصوله في مباحث أسباب النزول المرتبطة عادة بعلوم القرآن، ذلك أن معرفة سبب نزول الآية يعين على فهم معناها، فكثيراً ما أشكلت بعض الآيات على بعض الصحابة حتى عرفوا أسباب نزولها (الوادعي، 2004: ص. 10).

فإذا كان التفسير القرآني ينطلق من قواعد اللغة العربية ذلك أن القرآن الكريم عربي فلا بد لتفسيره من "معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم" (ابن عاشور، 2000: ص. 18)، فإنه لا غنى عن ربط هذه المعاني بواقع النص، خاصة معرفة الوقائع والأسباب التي يتوقف فهم المراد منه عليها (ابن عاشور، 2000: ص. 47).

ذلك أن من سميات القرآن الكريم الواقعية، فهو يتواكب مع كلّ عصرٍ ومصرٍ ويتناسب مع كلّ جيلٍ وقبيلٍ، وتنزيل النص القرآني على الواقع يحتاج إلى جانب معرفة

أصول التفسير وقواعده الدراية بالواقع ومتابعة أحداثه ومعايشة همومه (الشرقاوي، 2006: ص. 18)، وهو ذاته ما قصده شلاير ماخر بالاتجاه السيكلولوجي.

○ الفرع الثاني: التحدي الثاني: الهرمنيوطيقا ونسبية الفهم:

حقيقة الفهم لا يستأثر بها أحد، ولا ينبغي أن يستأثر بها، إذ ليست هناك حقائق، بل مجرد تأويلات فقط، مما يجعل عملية الفهم عملية غير منتهية، فإمكانية القراءات المختلفة للنص لا تعرف حدوداً تتوقف عندها، إذ أنه مع كل تحوّل في المفسر وأفقهِ تتاح إمكانية جديدة للتركيب والامتزاج وولادة فهم جديد . وعليه فليس ثمة فهم ثابت غير متحرك، ولا يصح تحديد فهم بوصفه الفهم النهائي الذي لا يتغير لنص من النصوص. وهذا ما يؤدي إلى "النسبية التفسيرية".

والنسبية التفسيرية ثابتة في القرآن الكريم لقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) [آل عمران: 7]، إلا أنها متعلقة بالمتشابه دون المحكم من نصوصه. وعليه يتم بعث النسبية التفسيرية مع النص القرآني من خلال العنصرين المواليين:

- أولاً: المتشابه والنسبية التفسيرية:

قال تعالى. في مطلع الآية السابقة:- (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) [آل عمران: 7]، فقد شغلت قضية المحكم والمتشابه الفكر الإسلامي في القديم والحديث، وتعددت فيه كلمات العلماء، واختلفت أقوالهم وتباينت آراؤهم، ولكل وجهة هو مولمها (فضل، 1997، ص. 485).

والمحكم من الإتقان وهو الواضح الدلالة، ما عرف المراد منه إما بالظهور أو بالتأويل. فالنص القرآني المحكم واضح الدلالة على مراد الله، ليس فيه اشتباه أو إشكال.

أما المتشابه الذي تتحقق معه النسبية الهرمنيوطيقية فهو الخفي غير واضح الدلالة، أي ما استأثر الله بعلمه. فالآيات المتشابهات هي التي تكون محل اختلاف في تأويلها دون أن يستأثر مفسر أو مؤول بالمعنى الحقيقي الذي هو في علم الله وحده. قال ابن عطية: "والآيات المتشابهات هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل، ويظهر فيها ببادئ النظر إما تعارض مع الأخرى أو مع العقل" (سعدي، 1988: ص. 190). ونسبية المعنى والتفسير المتعلقة بالمتشابه إما أن تكون راجعة إلى اللفظ، وإما أن تكون راجعة إلى المعنى، وإما أن تكون متعلقة باللفظ والمعنى معاً.

فالآيات المتشابهات هي التي لا يتضح معناها، لاحتمالها أوجهها من التأويل، ولذلك يحتاج فهمها إلى نظر وتدقيق، وقد لا يدرك تأويلها الذي بمعنى حقيقتها وكنهها مع النظر والتدقيق لأنها مما استأثر الله بعلمها. لكن علماء التفسير فرقوا بين المتشابه الحقيقي والتشابه النسبي.

1. التشابه الحقيقي: وهو ما لا يعلم تأويله إلا الله فلا يستطيع البشر أن يدركوا حقيقته ويصلوا إليه، فهذا القسم يشمل جميع ما أخبر به الله عن نفسه، مثل كفيات أسمائه وصفاته التي منها مثل قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه: 5]، وقوله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر: 22]، وقوله - عز وجل -: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص: 88]، وقوله أيضاً: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح: 10] إلى غير ذلك من أسماء الله وصفاته.

وكالعلم بوقت القيامة، وما جاء من حقائق اليوم الآخر؛ كما قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعَتِهَا إِلَّا هُوَ) [الأعراف: 187]، والمراد بذلك علم وقتها المحدد وحقيقتها.

وقد ألحق بعض العلماء بهذا النوع الحروف المقطعة في أوائل السور، قال الشعبي: "إن لكل كتاب سرّاً، وإن سرّ هذا القرآن فواتح السور" (ابن عطية، 1993: ص. 32).

2. التشابه النسبي: وهو ما يناظر النسبية الهرمنيوطيقية بالنسبة للناظر أو

المفسّر، فالمتشابه النسبي هو تلك النصوص القرآنية التي جعل الله عز وجل سبيلاً إلى معرفتها وإدراك معانيها، ولكنها تشابهت على المفسّر، فخفاء المعنى هنا ليس متعلقاً بالنص بقدر ما هو متعلق بالناظر وسعة إدراكه، فما خفي على بعض المفسرين إدراكه قد يُحكم معناه عند غيرهم. وذلك ما بيّنه حديث النبي ﷺ - بقوله: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وبينهما مشتهاتٌ لا يعلمهنَّ كثير من الناس) (البخاري، 1987: ص. 20)، فدلّ هذا على أن بعض الناس يدرك معانيها، فهي ليست مشتهية على الجميع.

والمتشابه النسبي على نوعين:

أ. التشابه لغرابة اللفظ: النصوص التي يتوهم منها التعارض كقوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) [الرحمن: 39].

ب. ملا يعلمه إلا الراسخون في العلم: فهو يحتاج إلى فهم عميق، وبعد نظر، وإطالة تأمل.

قال الراغب الإصفهاني: "المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه: كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته: كالألفاظ العربية والأحكام الغلقة، وضرب متردّد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله ﷺ - لابن عباس: (اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل)" (ابن حبان، 1993: ص. 531، الراغب الإصفهاني، 2001: ص. 258).

- ثانياً: اختلاف الفهم ووحدة الحقيقة

المعروف لدى علماء الأصول أن "الحق واحد والصواب متعدّد" (الغزالي، 1982:

358)، وعليه فاختلاف المفسّرين في تأويلهم وتفسيرهم هو من قبيل الصواب المتعدد أما المعنى الحقيقي والتفسير الدقيق فهذا من قبيل الحق الذي هو في علم الله عز وجل، إذ أنه

لا تناقض في مفاهيم نصوص الله عز وجل. ولا يستقيم القول بأن المعاني متعددة في النص الواحد.

ودليل ذلك أن النبي -ﷺ- قال: (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ) (البخاري، 1987: ص. 107)، ففي هذا الحديث قسّم النبي -ﷺ- المجتهدين إلى مصيب ومخطئ، فالحكم في كل مسألة عند الله تعالى -واحد-، يوفق إليه من شاء من عباده، ولذا كان الفقهاء يرد بعضهم على بعض، ويخطئ بعضهم بعضاً، قال ابن عبد البر: "والصواب مما اختلف فيه وتدافع وجه واحد، ولو كان الصواب في وجهين متدافعين ما خطأ السلف بعضهم بعضاً في اجتهادهم وقضائهم وفتواهم، والنظر يأبى أن يكون الشيء وضده صواباً كله" (القرطبي، 2003: ص. 177).

○ الفرع الثالث: التحدي الثالث: ارتباط الفهم بالنص لا

بصاحبه:

يرى غادامير في آخر ما وصل إليه التوظيف المفاهيمي للهرمنيوطيقا وفق ما أطلق عليه بالوجود الموضوعي إلى ضرورة فصل النص عن صاحبه والاستقلال عن كل العناصر النفسانية التي تولّد عنها (غادامير، 1988: ص. 26)، وعليه فالمفسّر لا يعبأ بالمقاصد والغايات التي يريد صاحب النص التعبير عنها. ذلك أن الهرمنيوطيقا الفلسفية ترى "أصالة المفسر" ولا تتوخى معرفة قصد المؤلف إطلاقاً.

وهذا التحدي لا ينسجم مع ما وصل إليه علماء التفسير بخصوص المقاصد والغايات التي يريدها النص القرآني، ذلك أن المتتبع لنصوص القرآن الكريم يجد فيها الكثير من بيان المقاصد، ولذلك قال المفسرون أنهم باستقراءهم لنصوص القرآن علموا أنها جاءت لمقاصد المكلفين من جلب المصالح ودفع المفاسد.

فنصوص القرآن كلّها راجعة إلى حفظ مقاصد الشّارع في الخلق، وقد تقرّر أنّ النصوص القرآنية إنّما شرّعت لجلب المصالح ودرء المفاسد (الشاطبي، 1999: ص. 54).

وقد ثبت استقراء وعقلا أنّ الشريعة مراعية لمصالح الناس وهي قائمة على أساس توفير السعادة لهم، ولم يخالف أحد في أن جميع الأحكام الشرعية متكفلة بمصالح العباد في الدارين (الأمدي، 1984: ص. 411)، فوضع الشرائع إنّما هو لمصالح العباد في الدنيا والآخرة معا، بجلب المنفعة لهم، ودفع الضرر عنهم (الشاطبي، 1992: ص. 158)، وليس لأحد أن يزعم أن أحكام الله لا تقوم على شيء غير التكليف، ومحض التعبد، أو أن يدعي بأن نسبة المصالح لأحكام الشرع إن هو إلا تكلف، وتحميل للدّين مالا يحتمل (البوطي، 1986: ص. 154).

وإذا كانت الشريعة قد اعتبرت المصالح، فإنّما المقصود بها المصالح المعتبرة شرعا، أو المصالح الحقيقية، وليست المصالح الموهومة، وعليه فالمرجع والملاذ في ذلك إنّما هو النص القرآني لا محض العقول ومجرد الأهواء، فالمصالح لا تعتبر إلا إذا كانت متوافقة مع خطاب الشارع. وأوامره ونواهيه. لأنّ تقديرها لا يخضع لعوامل الهوى وتأثيرات الشهوة (الكيلاي، 2000: ص 154). وإنما استفيدت من النص، ورافقته وترافقه من خلال اجتهاد الفقهاء وتحليلهم للخطاب الشرعي. فالفقه الإسلامي مبني على نصوص تهدف إلى مقاصد وغايات، فإذا كانت الأحكام الشرعية قائمة على أساس التكليف، إلا أنّ هذا التكليف ليس لمحض المشقة وإنما لتحقيق مقاصد وغايات عامة هي واحدة وثابتة لا يمكن أن تتغيّر، ولا أن تتبدّل بتغيّر الأجيال أو تبدّل الأزمان، وتعتبر هذه المقاصد أهم مرجع لتفسير القرآن (الفاسي، 1993، ص. 42-43). فالمقاصد الشرعية هي الأسرار والغايات التي اعتبرها الشارع عند كل حكم من أحكامها، والمتمثلة أساسا في مراعاة مصالح العباد وحفظ حقوقهم (الشاطبي، 1993: ص 3-4).

ومن أهم ما قيل عن ذلك عبارة ابن قيم الجوزية التي جاء فيها أن: "الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلّها، ورحمة كلّها، ومصالح كلّها، وحكمة كلّها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها

بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظلّه في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله الكريم ﷺ. "أتمّ دلالة وأصدقها.." (ابن القيم، 1973: ص 14).

كما أن المصلحة في الفقه الإسلامي مصلحة دنيوية ذات بُعد أخروي، لأن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معا. وهذه المصالح ليست متروكة للأعراف في تقديرها ولا للأهواء وملذّات النفوس في تحديدها، وإنما ضبطها الفقهاء وضبطوا معها حتى آليات الترجيح بينها عند التعارض على ما سيأتي بيانه (الكيلاني، 2000: ص 127).

المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصالح المستخلفين فيها وقيامهم بما كُلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض وتبدير المنافع للجميع. وباختصار فالشريعة الإسلامية تسعى لاستخلاف الإنسان في الأرض أحسن استخلاف (الفاسي، 1993: ص 45-46).

فالوحي هو الذي أوكل إلى العقل كطاقة خلافة يمتلكها الإنسان مهمة تنزيل هذه النصوص على الواقع والتبصّر بمآلاتها في ضوء ما يلابس الحياة من تعقيدات وظروف، وما يُلم بها من أحداث وتطورات، لهذا نجد أنّ القرآن الكريم يزخر بالآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض والأنفس والآفاق، قال تعالى: (إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [البقرة 164] ، وقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [النساء 82] ، والتدبر نشاط عقلي رفيع لا يملكه إلاّ الراسخون في العلم. وما أحسن ما افتتح به الماوردي كتابه القيم "أدب الدنيا والدين" حين قال في بداية مقدمته: "اعلم أنّ لكل شيء أساً ولكل أدب ينبوعاً وأس الفضائل وينبوع الأدب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألّف بين خلقه

مع اختلاف همومهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبد بهم به قسمين: قسما وجب بالعقل فأكدّه الشرع، وقسما جاز في العقل فأوجبّه الشرع فكان العقل عمادا له" (الماوردي، 1978: ص 03).

● الخاتمة:

- بعد تناول المطالب التي تم بحثها نخرج بجملّة من النتائج أهمها:
- المقصود بالهرمنيوطيقا علم التأويل أو فهم الفهم لا الفهم ذاته، أو التفسير ذاته، وهو ما ينطبق على علم التفسير القرآني، والذي اصطلح العلماء على اعتباره علما مستقلا بذاته لا مجرد منهج بحث.
 - التأويل القرآني يختلف عن الهرمنيوطيقا اليونانية في أن التفسير ليس حكرا على الرسل بل هو وظيفة عقلية مركزة تتطلب إعمالا عقليا راقيا، وهو ما يرادف الرسوخ في العلم في قوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) [آل عمران 7].
 - بين الهرمنيوطيقا اليونانية والتفسير القرآني الكثير من المقاربات يتجلى مجموعها في نقطتين أساسيتين:
 - الاستناد في التفسير أو التأويل إلى قواعد اللغة التي جاء عليها النص. ودلالاتها المختلفة.
 - اعتبار واقع الحال وظروف الزمن والمكان في تفسير النصوص وتأويلها.
 - الفهم العقلي للنص القرآني لا ينبغي أن ينقلب على حرفية النص ودلالاته الواضحة البيّنة، ذلك أن النص لا يتبيّن إلا بالعقل والعقل لا يهتدي إلا بالنص. فلا يمكن تجاوز لغة النص فيها نزل، كما لا يصح إهمال العقل فهو آلة التمييز.

المراجع

- إبراهيم، أحمد. (2006). إشكالية الوجود والتقنية عند مارتين هيدجر ، ط1، بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم.
- ابن حبان، أبوحاتم محمد التميمي. (1993). صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2، ج 15، بيروت، لبنان.
- ابن عاشور، الطاهر بن محمد. (2000). التحرير والتنوير، ط 1، ج 1، بيروت، لبنان: مؤسسة التاريخ العربي.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب. (1993). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط 1، ج 1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر . (1973). إعلام الموقعين، ط 1، ج 4، بيروت، لبنان: دار الجيل.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1988). البداية والنهاية، ط 1، ج 2، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- أبو زيد، نصر حامد. (1992). إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ط 2، بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- أبو زيد، نصر. (1981). الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.
- الآمدي، علي بن محمد . (1984). الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، ط 1، ج 3، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم. (1987). الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط 3، ج 1، بيروت: دار اليمامة.

- البوطي، محمد سعيد رمضان . (1986). ضوابط المصلحة، ط 5، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- الرّازي، محمد بن عمر . (1992). المحصول في علم أصول الفقه، ط 2، ج 5، بيروت، لبنان: مؤسّسة الرسالة.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. (2001). المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، بيروت، لبنان: دار المعرفة.
- سعدي، أبو جيب. (1988). القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، ط 2، دمشق: دار الفكر.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (1999). الموافقات، ط 1، ج 2، بيروت، لبنان: مؤسّسة الرسالة.
- شرفي، عبد الكريم . (2007). من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، ط 1، بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم.
- الشرقاوي، أحمد بن محمد. (2006). نحو منهج أمثل لتفسير القرآن، ط 1، الأزهر، مصر: المؤتمر الإسلامي العالمي،.
- عادل، مصطفى. (2007). فهم الفهم، ط 1، القاهرة، مصر: رؤية للنشر.
- غادامير. (1988). اللغة كوسيط للتجربة والتأويل، ترجمة: أمال أبي سليمان، مجلة العرب والفكر العالمي العدد 3.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد . (1982). المستصفى، ط 4، بيروت، لبنان: مؤسّسة الرّسالة.
- الفاسي، علّال . (1993). مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط 5، الجزائر: دار الغرب الإسلامي.
- فضل، حسن عباس. (1988). إتقان البرهان في علوم القرآن، ط 1، ج 1، عمان، الأردن: دار الفرقان.

- القرطبي، يوسف بن عبد الله. (2003). جامع بيان العلم وفضله، تحقيق فواز أحمد زمرلي، ط. 1، ج. 2، الرياض، المملكة العربية السعودية : مؤسسة الريان.
- الكيلاني، عبد الرحمن إبراهيم زيد . (2000). قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط1، دمشق، سوريا: دار الفكر.
- الماوردي، علي بن محمد. (1978). أدب الدنيا والدين، ط 1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الوادعي، مقبل بن هادي. (2004). الصحيح المسند من أسباب النزول، ط2، صنعاء، اليمن: مكتبة.